إضاءات فكرية

انتفاضة ثقافية عربية
كأساس لنهضة عربية حقيقية

الانتفاضة الثقافية تعني إنهاء احتلال عقولنا، تعني تحرير عقولنا من أكبر آفة في العصر الحاضر، ألا وهي مقارنة الناس والشعوب بعضهم بعضا (كما يحدث في المدارس والجامعات في مقارنة الأفراد، وفي أوساط التنمية في مقارنة الشعوب)، والتقليل من ممارسة قياس الناس والمجتمعات حسب معايير تضعهم على خط رأسي: الأول والثاني... إلخ، والعودة إلى مقولة صاغها علي بن أبي طالب رضي الله عنه قبل 1400 سنة: «قيمة كل امرئ ما يُحسن».

الانتفاضة الثقافية تعني إنهاء حالة الملل في التعليم وإنهاء إقبال الطلبة على الدراسة فقط جراء دافع خارجي (مثل العلامات)، واستعادة حياة الناس لتكون الموضوع الأساسي للتعلم. الانتفاضة الثقافية تعني إنهاء احتكار التعليم للتعلم، وإنهاء معادلة التعليم بالتعلم، وإنهاء مصادرة التعليم للتعلم، واستعادة التعلم باعتباره جوهر الحياة، بل مرادفاً لها.

الانتفاضة الثقافية تعني أنه إذا اضطررنا للاستمرار في إعطاء شهادات (والتي في أغلبها لا تقيس شيئا له معنى أو جدوى) لأشخاص لا يعرفون إلا اجترار معلومات في امتحانات ميتة، فبالأحرى أن نعطي شهادات لمن يتقنون عملا في الحياة، مثل المزارع والخياط والحلاق والطريش والميكانيكي وجامع القمامة والحكواتي والمهرّج ... إلى آخر ما هنالك من أعمال، أي إعطاء شهادة لكل شخص بما يحسن عمله. سأختار مثال المهرّج. ذكّرني صديقي العزيز سامر جبور، وهو طبيب، بأن دخول مهرّج إلى قرية يحسّن من صحة أطفال القرية أكثر من دخول مائة طبيب إليها. نعطي الأطباء شهادات وقيمة أما المهرّج فننظر إليه على أنه قضية مضحكة! الانتفاضة الثقافية تعني إنهاء هذا الخلل بالذات في المجتمعات.

الانتفاضة الثقافية هي إنهاء النظر إلى الناس، والطلبة بوجه خاص، وكأنهم مرضى بحاجة إلى علاج، أو كمستهلكين بحاجة إلى مواد جاهزة للاستهلاك؛ والانتقال إلى النظر إليهم كبناة لأنفسهم وللمجتمع من حولهم.

الانتفاضة الثقافية تعني تحويل الجزء الأكبر من ساعات التخدير أمام التلفزيون (إن لم يكن كلها) إلى ساعات عمل ولعب وقراءة ومحادثة وكتابة وإنتاج وبناء واستمتاع ورقص وغناء.

الانتفاضة الثقافية تعني إعادة النظر في المشكلة الاقتصادية، فالحل لا يمكن أن يكون في اتباع تنمية تستغل الموارد الطبيعية بشكل غير معقول فترهق الطبيعة وتلوثها إلى درجة خطرة للغاية، وتزيد من الهوة بين الناس إلى درجة لا يمكن أن تجلب معها إلا المصائب والويلات الاجتماعية والنفسية والحياتية.

من الضروري إعادة النظر في أنماط الاستهلاك السائدة وفي القيم التي تحكم أقوالنا وأفكارنا وأفعالنا وتصرفاتنا مثل السيطرة والربح باعتبارهما فوق كل القيم الأخرى. طلبت قبل عدة سنوات من طلبة أن يتابعوا ويسجلوا ما يستهلكونه يوميا، ولمدة شهر على الأقل، وأن يضعوا ذلك في عمودين: ما هو ضروري وما هو غير ضروري. كانت النتيجة مذهلة: ما يقارب من 80٪ مما نستهلكه غير ضروري (بل هو ضار في معظم الأحيان)! فإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أخرى

وهي أن معظم ما نحتاجه متوفر في البيئة المحلية، فإننا نرى أن طريق حل المشكلة الاقتصادية لا يكمن في اللهاث وراء سراب العولمة وإنما يكمن في معظم الحالات في تغيير الأنماط المتبعة في التفكير والاستهلاك. وهذا المثال بالذات، يمكن أن يكون تمرينا مفيدا في حصص الرياضيات والاجتماعيات على الأقل، لتصبح هذه الأنماط موضوع نقاش وأساسا في إعادة البناء، بما في ذلك بناء نظام اقتصادي يتوافق مع مصلحة أغلبية الناس، وبشكل خاص مع حماية الطبيعة والمحافظة على علاقات جميلة بين البشر.

لنتذكر مثلا أن سعر برميل الكولا الخام يبلغ مئة دولار بينما سعر برميل البترول الخام في أقصى حالاته 36 دولارا. إن استهلاك بلدة، مكونة من ثلاثين ألف نسمة، من الكولا، إذا أخذنا أقل التقديرات، يبلغ ثلاثة ملايين دولار في السنة!! وينطبق هذا على المواد الاستهلاكية الأخرى. ملايين من الدولارات تُهدر في السنة من قبل جزء صغير من المجتمع. وقس على ذلك في المجتمع ككل. الانتفاضة الثقافية تعني استعادة المياه النقية الشحيحة في معظم الدول العربية من براثن شركات الكولا لتعود ماء شرب، الناس بحاجة ماسة إليه. إذاً، من الواضح أين تكمن المشكلة، وأين يكمن الحل. فالمشكلة فينا والحل بأيدينا.

الانتفاضة الثقافية تعني حماية الذات والآخرين والطبيعة من التلوث الملازم لمعظم ما يُعطى حاليا للناس، سواء بالنسبة للمأكولات أو المشروبات أو المعلومات أو الترفيه أو المناهج ... تعني حماية أنفسنا من السموم في الإعلام ومن غياب الأمانة الفكرية لدى الخبراء فيما يتعلق بالقضايا التي لها علاقة بالبشر، مثل التعليم والحقوق والإدارة وتربية الأطفال. تعني استعادة الماء كمشروب وطني في الدول العربية، واستعادة ما تنتجه البيئة كغذاء رئيسي للناس، واستعادة التحادث في الأمسيات بين أفراد العائلة بدلا من مشاهدة التلفزيون، واستعادة عادة المشي واللعب في الجبال والسهول والوديان بدلا من تمضية الوقت في أسواق الهدر وقتل النفوس والمسماة ب«المول».

الانتفاضة الثقافية تعني أن يقوم كل عربي بعملٍ يشتمل على بناء (على مستوى العالم الداخلي أو مستوى النسيج الاجتماعي اللذين أشرت إليهما سابقاً)، مهما بدا ذلك العمل صغيراً أو غير مرئي، مثل المطالعة، أو التحادث مع الأطفال في المساء، أو اللعب معهم في النهار، أو رواية حكايات، أو تكوين مجموعات للحدّ من أخطار إخطبوط الاستهلاك أو للقيام بزراعة جماعية أو للقيام بإنتاج حضاري (مثل مسرحية أو مجلة) أو لقراءة التاريخ أو قراءة الأدب أو قراءة ما يجري في العالم الذي يهمله الخبراء والأكاديميون وشركة ال CNN وأخواتها.

أود أخيراً أن أطرح بعض الأفكار البسيطة التي أراها فعالة في تعميق الانتفاضة الثقافية، والتي يمكن تبنيها في معظم المواقع، وبوجه خاص في المدارس (وتنبع أهمية المدارس هنا من حقيقة أن فيها ثلث الناس). وهي أفكار نرى بذورها في بعض المواقع:

الفكرة الأولى: تأملات يومية

أن يحمل كل شخص كراساً صغيراً باستمرار، يكتب فيه تأملاته عما يمر به، لحظة مروره به (حيث أمكن). ولعل أهم ما يميز التعبير التأملي هو إعادة النظر (على ضوء خبرات الشخص) في معاني الكلمات المتداولة، وفي المعايير السائدة لتقييم الناس والأفكار والأفعال والأقوال.

الفكرة الثانية: «جواز سفر» عربي للقراءة

والفكرة مبنية على تجربة «مؤسسة تامر» في فلسطين. (يمكن الاتصال بالمؤسسة للحصول على التفاصيل).

كما يمكن الرجوع إلى المقال:

“The reading campaign within the Palestinian society: innovative strategies in learning and building community.” Harvard Educational Review, 1995, Vol. (1).

ومن بين ما يمكن فعله هو البدء بإنشاء مكتبة داخل كل صف، مسؤول عنها الطلبة أنفسهم، إذ - بعكس المكتبة المدرسية - لا تحتاج مكتبة الصف إلى ميزانية ولا تحتاج إلى أمين/أمينة مكتبة، كما أنها تضع الطلبة في موضع مسؤولية تُكسبهم كثيراً من المهارات والقدرات. ومن بين الكتب العملية التي تساعد في بناء مثل هذه المكتبات الصفية، مثل كتاب «نشاطات في المكتبة» وكتاب «هيا ننظم المكتبة» لماري فاشه، والذي يمكن الحصول عليه من مؤسسة تامر.

الفكرة الثالثة:

كراس تأملات يومية ينتهي باثني عشر كتابا/ «قصة حياتي» خلال فترة المدرسة ويمكن تبني هذه الفكرة على مستوى الشخص أو الصف أو المدرسة. أما الفكرة فهي أن يبدأ أكبر عدد ممكن من الطلبة

الانتفاضة الثقافية تعني حماية الذات والآخرين والطبيعة من التلوث الملازم لمعظم ما يُعطى حاليا للناس، سواء بالنسبة للمأكولات أو المشروبات أو المعلومات أو الترفيه أو المناهج

كتابة «قصص حياتهم»، بشكل يومي إذا أمكن، ابتداء من الصف الأول، بحيث يُنتج كل منهم كتابا في نهاية كل عام دراسي. وهذا يعني أن الطالب يتخرج من المدرسة، لا يحمل فقط شهادة (والتي لا قيمة لها بالنسبة لأغلبية الطلبة)، وإنما يحمل أيضاً إثني عشر كتاباً أصيلا ألفها هو بنفسه!

الفكرة الرابعة: المسؤولية والمبادرة الشخصية

قيام كل شخص بسؤال نفسه: «على أي مستوى وبأي معنى، يمكن أن نبني أنا وأصدقائي، في الموقع الذي نعيش فيه، وبالموارد والوسائل المتوفرة لدينا؟» ومن ثم يبدأون بالبناء، الذي يمكن أن يكون – كما ذكرت سابقاً – عبارة عن مجلة أو فيلما أو مسرحية أو أغنية أو مشروعا اقتصاديا.

د. منير فاشه
الملتقى التربوي العربي
مركز دراسات الشرق الأوسط/ جامعة هارفارد

* هذه المقالة تمثل جزءا من مقالة طويلة بعنوان «انتفاضة ثقافية عربية كأساس لنهضة عربية حقيقية» للحصول عليها كاملة يمكن الاتصال بالمركز.

دعوة للكتابة في محور العدد القادم

كيف يتفاعل المعلمون مع الأوضاع الراهنة؟

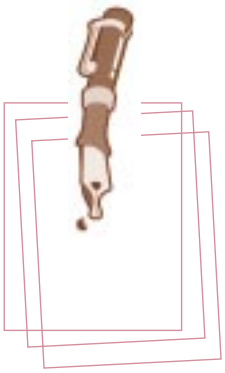

تخطط «هيئة التحرير» لإفراد محور خاص في العدد القادم في مجال «تفاعل المعلمين مع الأوضاع الراهنة» وفي هذا السياق فإننا ندعو المعلمات والمعلمين إلى كتابة تجاربهم وتصوراتهم ورؤاهم وتطبيقاتهم كي نتمكن من نشرها في هذا المحور. وحينما نتحدث عن التفاعل مع الأوضاع الراهنة، فإننا لا نقصد فقط مجال التعامل مع الوضع النفسي للتلاميذ وطبيعة التصرفات والسلوكيات الناجمة عن تأثير الظروف السياسية والميدانية، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى التفاعل الأكاديمي أيضا؛ بمعنى الاهتمام أيضا بمحتوى التدريس وأساليبه بصلاته بما يجري، وعلى سبيل التوضيح فإننا نشير إلى المحاور التالية:

- ما التغيرات التي طرأت على طبيعة سير العملية التربوية وتأثيرها ونواتجها؟.
- ما الحلول والبدائل التي تم تنفيذها بناء على التغيرات التي حدثت نتيجة لهذه الأوضاع؟.
- هل حدثت تغيرات في محتوى المادة الدراسية وطرائق تدريسها استنادا إلى المعطيات الواقعية؟.
- ما طبيعة الأنشطة التي أدرجت في العملية التعليمية والتي أملتها تلك المتغيرات؟.
- ما المواد التي تم توظيفها في العملية التربوية، وبخاصة المواد الإعلامية والثقافية كالجرائد، والصور، والأفلام الوثائقية والروائية، الخطابات السياسية، التقارير الصحفية، الأخبار... الخ.
- كيف تفاعلتم مع المواضيع والأسئلة المطروحة في الكتب المدرسية في المجالات التاريخية والثقافية والسياسية؟.
- كيف تعاملتم مع التساؤلات الثقافية والتاريخية والسياسية التي أغفلتها الكتب المدرسية وأملتها الوقائع الراهنة؟.
- كيف تعاملتم مع تساؤلات التلاميذ وانطباعاتهم وانفعالاتهم ومشاعرهم سواء أكان ذلك في حجرة الصف أم في المدرسة بوجه عام.
- ما التجارب المجتمعية التي أدخلتموها إلى مدارسكم بسبب هذه الأوضاع وكيف تفاعل معها التلاميذ وإلى أي مدى كانت مؤثرة في صياغة انفعالاتهم ومداركهم؟

إضافة إلى العديد من المحاور الأخرى التي يمكن الكتابة فيها. إننا نتطلع إلى إسهاماتكم المباشرة في هذه المحاور من خلال التركيز على تجاربكم الشخصية المباشرة، أو تجارب لاحظتموها وتابعتموها وعرفتموها، وليس إلى تصورات نظرية محضة، نحن نتطلع إلى مواد تقدم صورا ورؤى تم تطبيقها أو ما زالت في طور التطبيق أو تخططون لتطبيقها.

آخر موعد لاستلام كتاباتكم 2002/2/20.